

رحلة عمر : قصة مهاجر

هاانا جالس في شرفت غرفتي، احتسي كوبا من الشاي يوهمني بالدفي. دفي افتقدته منذ سنوات عديدة و برد قارس لم اتعود عليه في بلدي، ذلك البلد البعيد المشمس و القريب من القلب احداث عديدة مررت بها في الخمس سنوات الماضية. هاجرت الى فرنسا، البلد المقيم به حاليا، بحثا عن مستقبل مزهر و حبا في العلم. علم ابهرني و اصبح ركنا في حياتي ازددت و ترعرت في المغرب، في عائلة بسيطة، و كوني الابن الوحيد، حضيت بتربية و تعليم جيد، و لم اخدل والدي ابدًا. كنت دائما ذلك التلميذ المجد المتفوق.

في هذا النص سوف اتحدث عن مساري و سعي وراء حلم ذلك الطفل الريفي و علاقته بالهجرة عامة منذ هجرتي الى فرنسا، سافرت الى العديد من البلدان، و دائما هاجسي الاكبر كان هو ملاحظة الفوارق و الاختلاف بين الشعوب. فكما في العلوم، الملاحظة سر من اسرار النجاح ان لم تكن السر الوحيد.

قبل هجرتي الى فرنسا، كنت طالبا في الاقسام التحضيرية لولوج مدارس المهندسين بمدينة الرباط. كنت في قسم "الامتياز" القسم الوحيد بالمغرب الذي يخول لك الضروف الملائمة من اجل الاستعداد الى امتحانات ولوج المدارس العليا بفرنسا.

يدوم الاستعداد سنتين، بعدها نجتاز الامتحانات بالمعهد الفرنسي في الرباط. اتذكر كم كنت متحمسا للنجاح و كم كنت سعيدا رغم العمل الشاق. بعد نهاية الامتحانات الكتابية، يتم استدعاؤنا من اجل الاختبار الشفوي في باريس. في صيف عام 2014 كانت اول رحلة لي خارج المغرب. هدفي الوحيد كان هو النجاح وبالفعل كنت محضوضا، فمن جد وجد و من زرع حصد.

رحلتي الاولى الى فرنسا كانت كانجاز بالنسبت لي. لم اصدق ان حلمي قريب. كنت مقيما في مدينة افري في الضاحية البارسية. ما اتار دهشتي في الرحلة الاولى هو عدد الاجانب في النقل المشترك. هنالك ادركت ان افريقيا بكاملها تحلم بالهجرة. المشكل هنا يكمن في هجرة اليد العاملة.

تعد فرنسا من بين الدول الاكثر استقطابا للمهاجرين من القارة السمراء. العلاقات التاريخية و اللغوية بين فرنسا و افريقيا تسهل هذا العبور ولكن بمجرد الوصول الى هنا لاحظت العديد من الفوارق و المشاكل الاجتماعية لدى المهاجرين و كيف ان الاندماج اصبح مشكلا سياسيا. منذ وصولي الى فرنسا لاحظت بان هناك عالمين متباعدين. عالم الضواحي و عالم الاحياء البارسية الراقية. كأن الطبقة بين المستعمر و المستعمر ثم تجسيدها في مدينة واحدة.

امثلة بسيطة من الحياة اليومية يمكن ان توضح هذه الفوارق. بالرغم من ان جل المهاجرين العاملين هنا يحضون بحياة لم يحلموا بها في افريقيا، فلا حرب و لا مجاعة و لا خوف في بلاد العدالة و الحرية. لكن المشكل اكثر عمقا من الحظي بحياة بسيطة

مشكل الاندماج مشكل حقيقي. فابناء المهاجرين في الضواحي يعيشون في عالم مليئ بتجارة المخدرات و الجريمة. كان لعنة تلاحقهم رغم هروب والديهم من بلدهم الاصلي رغبة في مستقبل مزهر في المدرسة التي ادرس بها، و التي تعد من بين المدارس العليا الاكثر انتقاء، نسبة الطلبة القادمين من الضواحي شبه منعدمة. بحيث ان الطلبة الاجانب مثلي اكثر حضورا من ابناء المهاجرين الذين ولدوا في فرنسا. كنت مندهشا كيف ان التعليم العالي لا يجسد مكونات المجتمع الفرنسي خلال عامي الاول، كنت منخرطا في العديد من الجمعيات في مدرستي وتعرفت على العديد من الطلبة. كنت منبها بمدى مساعدتهم و انفتاحهم على الاجانب و هنا جاء الى ذهني سؤال اخر : اليس المقيمون بالضواحي هم من اختاروا البقاء في قوقعه المشاكل الاجتماعية و لم ينفثوا على المجتمع الفرنسي؟ كوني عشت في المغرب لسنوات عديدة، يمكن لي ان اكد بان العيش في بلد كفرنسا فرصة من ذهب و على المهاجر ان يبذل جهده في الاندماج و في رغبته في النجاح

مشكل المهاجر هو مدى قدرته على البرهنة بانه مؤهل للعمل الذي يقوم به. يمكن ان اتفهم بان في الايام الاولى في اي عمل، كمهاجر، يمكن ان يكون هناك احساس بانك غريب في مجالك. لكن بمجرد البرهنة على كفاءتك نضرة الاخر تتغير الى ما هو احسن

في نهاية العام الدراسي الاول يجب علينا ان نذهب الى فترة تدريب خلال العطلة الصيفية. العديد من اصدقائي المغاربة اختاروا اكمال هذا التدريب في المغرب من القرب من العائلة

اما انا فرايت هذا التدريب كفرصة لاكتشاف بلد و ثقافة جديدة. اخترت ان امضي شهرين في بلاد الشمس المشرقة : اليابان

كنت متحمسا لهذه الرحلة. كانت المرة الاولى التي اسافر فيها الى اسيا. خلال هته الرحلة كنت مقيما عند عائلة يابانية في العاصمة طوكيو. كان الجو رائعا و كل الظروف ملائمة من اجل الاستمتاع بهذه المغامرة

خلال الشهر الاول كنا نمضي بضع ساعات في دراسة اللغة اليابانية و بعدها نذهب لزيارة المدينة و اكتشاف عوالمها

ما ابهرني في اليابان هو مدى الاحترام و الامن. كل شئ منظم! بلاد تعيش في كوكب اخر. لم يصبق لي ان رايت احتراما متبادل بين المواطنين كالذي رايته في عالم اليابان، عالم تعجز الكلمات عن وصفه

رؤية اليابانيين عن المهاجرين مختلفت تماما عن العالم الغربي. نسبة المهاجرين في اليابان جد منخفضة و رؤية الاجنبي شئ غريب. لازالت توجد تلك الرغبة في التعرف على ثقافة المهاجر. رغبت

فقدت في نصري في فرنسا

خلال الشهر الثاني من رحلتي الى اليابان كنت متدربا في فندق في منطقة سياحية تبعد حوالي ساعتين عن طوكيو. خلال تلك الفترة كنت مع بعض الزملاء من المدرسة و انجزنا تدريبنا سويتا. كنا

نساعد الطباخ في مهامه اليومية و ننصف الحديقة.خلال اقممتنا في الفندق كان الجو رائعا و العمل مع اليابانيين مذهل. اشتاق تلك الايام، لا اجهاد و لا تعب فيها بعد انتهاء رحلتي الى اليابان، عدت لزيارت لعائليتي في المغرب. بعدها بدأت مغامرة العام الدراسي الثاني في مدينة الانوار

في العام الدراسي الثاني نختار اختصاصا (شعبة). اتجهت نحو الرياضيات التطبيقية و الاحصاء، شعبة تتطلب العمل و المثابرة. كان كل شئ على ما يرام، اندماجي في مجتمعنا المصغر في المدرسة بدا يتحسن. فجأة حدثت هجمات باريس الارهابية. حدث سيغير مكانت المهاجرين العرب في فرنسا و اوروبا عامة. من الصعب تخيل مدى فجاعة هذه الكارثة. الحياة اليومية تغيرت و كل مكان عمومي اصبح مشدد الحراسة

لا استطيع ان اتخيل كيف يمكن للانسان ان يقتل انسانا اخر بمجرد انه مختلف عنه. في نظري، الانسان من بين الكائنات الحية النادرة التي تقتل بعضها البعض. بالرغم من ذكائنا و مستوى وعينا، لكننا لم نسطع ان نتجاوز هذا الفعل الحيواني

بعد بضع اسابيع عادت الحياة الى مجاريها، لكن صورة العرب لطخت للابد. ما يحزنني في المجتمع هو الحكم المسبق على شخص استنادا على مظهره او انتمائه الطبقي. اضمن ان هذا الحكم المسبق هو سبب كل المشاكل و الاختلافات في المجتمع، لو ان كل شخص كون فكرته عن الاخر استنادا للشخص ذاته لما عرفنا معنى العنصرية

بعد نهاية العام الدراسي، اخترت ان اذهب الى المملكة المتحدة من اجل تدريب في البحث العلمي و رغبة في مغامرة جديدة. اظن ان في عمر الشباب يجب ان نتعلم من الحياة و في نظري يتم ذلك من خلال السفر و التعرف على اناس جدد و ثقافة مختلفة

استقرت في مدينة ليدز في شمال انجلترا. كنت اعمل في مركز بحث في الجامعة و كان موضوع بحثي في الرياضيات التطبيقية و المالية. خلال ثلاث اشهر في انجلترا، كنت اشارك السكن مع طلبة من نفس الجامعة مما سمح لي بالتعرف على المدينة و الثقافة المحلية بسهولة. كان الجو معتدلا و ملائما من اجل الخروج و التجول في المدينة. مدينة صغيرة لكنها تحمل العديد من القصص وتاريخ عتيق. في مدينة كهذه من السهل ان تشعر بانك اجنبي و بعيد عن المجتمع و مكوناته، لكن التعرف على اصدقاء جدد يغير الوضع و يشعرك بالانتماء الى جماعة كان هنالك العديد من الانشطة للطلبة الاجنبيين في الجامعة ما اشعرنني بان الوقت الذي امضيته هناك جرى بسرعة

الحدث الاهم خلال اقامتي كان خروج المملكة المتحدة من الاتحاد الاوروبي. الكل كان واثق من ان هذا الحدث لن يحقق لكن الكل كان خاطئا و رغبة الشعب اتجهت نحو الخروج. من بين الاسباب الرئيسية في الخروج : الهجرة

العديد من المهاجرين من دول اوروبا الشرقية مستقرون في بريطانيا. هذا الدفق احدث العديد من المشاكل و التفاعل السلبي خاصة لدى المسنين. و النتيجة كانت هي الخروج. غير معقول ان هذا

الخروج الذي قرره المسنون يشكل حكما على المستقبل. لكن اختيار الشعب احترام استنادا لمبادئ الديمقراطية و الاغلبية

بعد انتهاء تدريبي في المملكة المتحدة، حصلت على عرض عمل في الولايات المتحدة لمدة عام. هذا النوع من العروض تشعنا المدرسة على اكمال في اطار سنة بيضاء، حيث نوقف الدراسة لمدة ١٢ شهرا و بعدها نعود الى اكمال العام الاخير و الحصول على شهادة مهندس الذهاب الى الولايات المتحدة حلم يرافقني منذ طفولتي. اذكر عندها كنت صغيرا و نزور شواطئ المحيط الاطلسي في المغرب، كان ابي دائما يقول لي اذا ذهبت في خط مستقيم في المحيط، سوف اصل الى الولايات المتحدة. اذكر حينها تكونت لدي فكرة زيارة ذلك البلد في يوم من الايام كنت جد فرح بهذا العرض و قبلته دون تردد. انهيت تدريبي في غشت و و ذهبت للعمل في بنك في نيو يورك في شتتبر. قبل ذهابي الى بلاد العم سام، قررت ان ازور عائلتي لبضع اسابيع قبل خوض مغامرتي في الولايات المتحدة

اتذكر وصولي الي نيويورك كانه كان البارحة. احساس غريب ان تصل الى التفاحة الكبيرة. البنك الذي كنت اعمل فيه ساعدني على الاستقرار في الاسابيع الاولى وايجاد مسكن. بعد بضعت ايام بدأت العمل في مركز الاعمال وسط المدينة. كل شئ كان عملاقا. في مدينة نيويورك جل الساكنة مهاجرون و نظرة الاخرة لك جد مختلفة عن اوربا. لا يوجد الكثير من الحكم المسبق لان الكل مهاجر و الكل يحاول ان يتعرف على الآخر

كان من السهل التعرف على اصدقاء جدد و الاستمتاع بافضل اللحظات في حياتي بعد الانتخابات الامريكية و و فوز ترامب، احسست بانني لم اكن حقا في الولايات المتحدة التي اختارته. كيف يمكن لبلد يعتبر من اكبر المستقطبين للمهاجرين و الاكثر تنوعا ان يختار ترامب رئيسا الولايات المتحدة كما نعرفها حاليا بلد مهاجرين. باستثناء السكان الاصليين الذين اقتربوا من الانقراض، الكل مهاجر من اوربا و افريقيا عامة. المشكل الحقيقي هو كيف يمكن لمهاجر بعد اقل من قرنين ان يصبح عنصريا وان يظن نفسه صاحب البلد. هنا يمكن ان نلاحظ بان مشكلا حقيقيا يوجد في المجتمع الامريكي. مجتمع مهاجر لكنه لم يتعلم و يستفيد من تجربة الهجرة. بل يعيد نفس السيناريو : بعد الاستقرار الجل يصبح عنصريا خوفا من ان يفقد الاستقرار و الهيمنة

يعتبر الانسان الكائن الاكثر ذكاء في الكون (حسب المعرفة المتوفرة لنا حاليا). استطاع ان يصل الى القمر و يطور مجتمعا جد معقد. طورنا علوما و حاولنا ان نفهم كل شئ يحيط بنا. لكننا لم نستطع التغلب على مشكل بسيط بالمقارنة مع ما استطعنا ان ننجز : التغلب على مشكل العنصرية من جهة و قبول الآخر رغم الاختلافات من جهة اخرى

اذا تخيلنا في هذا الكون الشاسع، كائنا ذكيا مثلنا و قرر زيارتنا في يوم من الايام، سينبهر كيف الانسان يقاتل و يدمم الآخر بمجرد ان هناك اختلاف في الثقافة و الشكل خلال السنوات الاخيرة قررت ان ازور العديد من البلدان. خلال رحلاتي تعلمت الكثير عن التعامل مع الغير و كيفية الاندماج. و افضل شئ تعلمته هو ان السفر افضل درس في الحياة